أعمال القلوب في القرآن والسنة

التوكُّل على الله تبارك وتعالى

إعداد أ/عبد العزيز مصطفى الشامي

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن التوكل على الله تعالى يُعدُّ من أجلِّ أعمال القلوب، وأعظم العبادات التي يتقرب بها العبد إلى ربه، بل هو من لوازم التوحيد الصادق، إذ لا يكتمل إيمان العبد حتى يعتمد بقلبه على الله وحده، ويُفوِّض إليه أمره كله، مع بذل الأسباب المشروعة التي أمر الله بها. ولذلك قرن الله تعالى التوكل بالإيمان في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وجعله علامة على صدق المؤمنين، فقال سبحانه: «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (المائدة: ٢٣).

فالتوكل ليس مجرد كلمة تُقال، ولا أمنية تُتمنى، وإنما هو عبودية قلبية عظيمة تجمع بين قوة الثقة بالله، وحسن الظن به، وبذل الجهد في الأسباب المشروعة، مع اليقين بأن النفع والضر بيد الله وحده.

حقيقة التوكل

عرَّف العلماء التوكل بأنه: صدق اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المصالح ودفع المضار، مع فعل الأسباب التي أذن الله بها.

منزلة التوكل في القرآن الكريم

ورد ذِكر التوكل في القرآن الكريم في عشرات المواضع، مما يدل على عظيم مكانته، ومن ذلك قوله تعالى: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» (آل عمران: ١٥٩)؛ فهذه الآية جمعت بين أمرين عظيمين: الأخذ بالأسباب من خلال العزم والتخطيط، ثم الاعتماد على الله بعد ذلك.

Upload by: altawhedmag.com

وقال سبحانه: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» (الطلاق: ٣)؛ أي: كافيه، وحافظه، وناصره، فلا يحتاج المتوكل إلى غير الله تعالى.

وقال تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (الأنفال: ٢)؛ فجعل التوكل من أوصاف المؤمنين الصادقين.

التوكل في السنة النبوية

جاءت السنة النبوية تؤكد أهمية التوكل على الله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا، وتروح بطانًا» رواه أحمد والترمذي. وهذا الحديث من أعظم النصوص في بيان حقيقة التوكل؛ فالطير لا تبقى في أعشاشها منتظرة الرزق، وانما تغدو صباحًا تبحث وتسعى، ثم تعود مساءً وقد رزقها الله، فجمعت بين السعي والاعتماد على الله.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» رواه الترمذي وصححه.

وفي الصحيحين أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أأعقلها وأتوكل، أم أطلقها وأتوكل؟ فقال: «اعقلها وتوكل»؛ فهذا الحديث أصل في الجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم سيد المتوكلين. ومع ذلك كان يلبس الدرع في القتال، ويستشير أصحابه، ويعد العدة، ويتخذ الأسباب كلها، ثم يفوض النتائج إلى الله سبحانه.

كيف يحقق المسلم عبودية التوكل؟

للتوكل الصحيح أركان وشروط يتحقق بها، من أهمها:

أولاً: معرفة الله تعالى؛ فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد توكله عليه، فمن علم أن الله هو الرزاق، والكافي، والحفيظ، والقوي، والمتين، اطمأن قلبه إليه.

ثانيًا: حسن الظن بالله؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا عند ظن عبدي بي» متفق عليه. فالمؤمن يحسن الظن بربه، ويوقن أن الله لا يخذله إذا صدق في اللجوء إليه.

ثالثًا: بذل الأسباب؛ الأسباب جزء من الشرع، وتركها ليس توكلاً، وانما هو تواكل وعجز. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة».

رابعًا: تفويض النتائج إلى الله؛ يبذل العبد وسعه، ثم يرضى بما يقدره الله، لأنه يعلم أن الخير فيما اختاره الله، وان خالف رغبة النفس.

خامسًا: دوام الدعاء والاستعانة بالله؛ فالمتوكل كثير اللجوء إلى ربه، يعلم أن خزائن السماوات والأرض بيده سبحانه.

الفرق بين التوكل والتواكل

يخلط بعض الناس بين التوكل والتواكل، والفرق بينهما واضح.

فالتوكل عبادة شرعية تقوم على الاعتماد على الله مع بذل الجهد والعمل والأخذ بالأسباب. أما التواكل فهو ترك الأسباب بحجة الاعتماد على الله.

Upload by: altawhedmag.com

وهذا مخالف للشرع والعقل. فالمريض يراجع الطبيب ويتداوى، والطالب يذاكر، والتاجر يسعى في تجارته، ثم يعتمد الجميع على الله في النتائج.

ثمرات التوكل

للتوكل آثار عظيمة في حياة المسلم، منها:

١- محبة الله تعالى: قال سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» (آل عمران: ١٥٩)؛ وأعظم ما يتمناه المؤمن أن يكون محبوبًا عند الله.

٢- كفاية الله للعبد: قال تعالى: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» (الطلاق: ٣)؛ أي يكفيه في دينه ودنياه وآخرته.

٣- قوة القلب: فالمتوكل لا تهزه الأزمات، ولا تضعفه المصائب؛ لأنه يعلم أن الأمور كلها بيد الله.

٤- الطمأنينة والسكينة: إذا استقر التوكل في القلب زال كثير من القلق والخوف، لأن القلب صار معتمدًا على الله لا على الأسباب وحدها.

٥- الرزق المبارك: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير»؛ فالتوكل على الله مع السعي من أعظم أسباب الرزق.

٦- الشجاعة والثبات: كان الأنبياء أعظم الناس توكلاً، ولذلك كانوا أشجع الناس وأثبتهم في مواجهة الشدائد. قال تعالى: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» (آل عمران: ١٧٣).

نماذج من توكل الأنبياء

لقد جسّد الأنبياء عليهم السلام أعلى مراتب التوكل؛ فإبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، فجعل الله النار بردًا وسلامًا عليه. وموسى عليه السلام حين أدركه فرعون وجنوده قال قومه: «إِنَّا لَمُدْرَكُونَ»، فأجابهم بقلب الواثق بالله: «كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ» (الشعراء: ٦٢).

وأما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ففي الهجرة، وقد أحاط المشركون بالغار، قال لصاحبه أبي بكر رضي الله عنه: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» (التوبة: ٤٠)؛ فكان هذا الموقف من أعظم صور التوكل والثقة بالله.

وسائل تقوية التوكل

من أهم الوسائل التي تعين على تحقيق التوكل: الإكثار من قراءة القرآن والتدبر في آياته. ومعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته. وكثرة الدعاء والذكر. واستحضار نِعَم الله السابقة. والتأمل في قصص الأنبياء والصالحين. ومجاهدة النفس على تفويض الأمر لله تعالى. والرضا بقضاء الله بعد بذل الأسباب المشروعة.

إن عبودية التوكل من أجلّ العبادات القلبية، وهي ثمرة صدق التوحيد وكمال الإيمان. فالمؤمن يعيش بين الأخذ بالأسباب والاعتماد على رب الأسباب، فلا يغترّ بقوته، ولا ييأس عند ضعف إمكاناته؛ لأنه يعلم أن خزائن كل شيء بيد الله سبحانه.

وحين يستقر التوكل في القلب، تتحول المخاوف إلى طمأنينة، والهموم إلى يقين، والعجز إلى قوة، ويصبح المسلم واثقًا بربه في جميع شؤونه، مرددًا في كل أحواله: «حسبنا الله ونعم الوكيل». ومن جعل الله وكيله، كفاه، وحفظه، ووفقه، وأعانه، وفاز بخيري الدنيا والآخرة. قال تعالى: «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (المائدة: ٢٣).

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com